

الرجل العجوز الذي جعل الأشجار تورق



كان ياما كان، ولكن ليس من المعروف أين ومتى كان، كان يعيش زوجان عجوزان. كانا سعيدين جداً، لولا أمر واحد، وهو أن هذين الزوجين لم يكن لديهما أطفال. ولكي لا يكونا وحيدين تماماً كان عندهما كلب اسمه شيرو، وقد منحنا شيرو حباً يقرب من حب الوالدين للإبن.

يقال إن القطة تتسى حنان ثلاث سنوات في ثلاثة أيام، في حين أن الكلب يتذكر حنان ثلاثة أيام بمدة ثلاث سنوات.

وفي كل الأحوال هناك القليل من الحيوانات الوفية وفاء الكلب. ولما كان الزوجان العجوزان يحبان الكلب شيرو وكأنه ابنهما، فإن الكلب بدوره كان يشعر بالامتنان لحبهما ويتفانى من أجلهما. ففي النهار كان شيرو يتبع سيده عندما يذهب إلى الجبال للتخطيط.

وفي الليل كان يحرس بيته وحقله بإخلاص. فازداد تولع الزوجين العجوزين بالكلب شيرو يوماً بعد يوم. وإذا كان لديهما من الطعام ما لذ وطاب أكله، كانا يقدمانه للكلب أولاً، حتى لو لم يبق منه شيء لنفسيهما، لأن ما من شيء كان يفرضهما مثل منظر شيرو وهو منفرج الأسارير.

وكان يعيش إلى جوارهما زوجان عجوزان آخران. ولكنهما، للأسف، كانا من نوع آخر تماماً، وكانا يكرهان شيرو. فإن مجرد نظرة يختلسها شيرو من باب مطبخهما كانت كافية لتجعلهما يصرخان به بغضب، وكأنه سلبهما أسماكهما، أو يرميانه بقطع الخشب أو أي شيء يكون في متناول أيديهما. وكم من مرة عاد شيرو المسكين راكضاً إلى البيت وهو يعرج.

وفي أحد الأيام ظل شيرو، لسبب غامض، يعوي بلا انقطاع في الحقل الذي يمتد وراء البيت. فخرج الرجل العجوز ليتبين الأمر فلما منه أن أعداءه القدماء، الغربان، كانت تعبث بالمكان.

في البداية قفز شيرو مهتاجاً على سيده، ثم أخذ كيمونو الرجل العجوز في أسنانه وجره إلى زاوية في الحقل، حيث أخذ ينبش الأرض بحماسة تحت شجرة من أشجار الدردار. تعجب الرجل العجوز من أعمال شيرو، وقال: "لماذا يا شيرو، ماذا بك؟".

بدأ شيرو يعوي وهو ما زال يشم الأرض: "هو - هو! أحضر هنا! هو - هو! أحضر هنا!"

وأخيراً فهم الرجل العجوز أن شيرو يريد أن يحضر لأن شيئاً ما
كان بالفعل مخفياً تحت شجرة الدردار.

فقال: "آه، حسناً، فاهم، فاهم".

وفي الحال أتى بمعزق من المستودع، وما أن غرزه عميقاً في
التربة، في المكان الذي بدأ شيرو يحضر عنده، حتى ضرب المعزق شيئاً
رناناً، ورأى في الوقت نفسه شيئاً لامعاً براقاً.

وعندما انحنى الرجل العجوز ورفع شيئاً عن الأرض، هتف: "ماذا
عساه أن يكون؟" من يصدق؟ إنها قطعة نقدية من الذهب.

واستمر الرجل العجوز يحضر، مفكراً أن هذا أمر في غاية الروعة.
وكلما تعمق في الحضر ازداد تدفق القطع النقدية. وقبل أن يمضي وقت
طويل تكدس منها كوم كبير.

صعق الرجل العجوز وأسرع إلى زوجته، وقاماً معاً بحمل القطع
النقدية إلى البيت.



وكان من الطبيعي أن يحتفظ العجوزان بكل القطع النقدية.. ولم لا ؟ لأنها جاءت كلها من حقلهما. وهكذا أصبحا، بين ليلة وضحاها، ثريين بفضل حسن حظهما.

وفي اليوم التالي، جاء الجار المشاكس، وسأل، بأدب إذا كان يستطيع استعارة الكلب شيرو لفترة قصيرة.

فكر الرجل العجوز إنه لأمر غريب أن يأتي جاره لاستعارة شيرو، وهو الذي أساء في السابق معاملته على الدوام. ولكن رجلنا العجوز هذا كان حسن الطوية، ولا يتردد في مساعدة الآخرين. فقال: "بكل تأكيد، إذا كان في هذا فائدة لك. خذه على الرحب والسعة." وهكذا أعيير شيرو إلى الجار.

جاء ذلك العجوز الشرير مسروراً بنجاحه وعلى وجهه ابتسامة الرضا، وقال لزوجته: انظري يا زوجتي العزيزة، لقد أقتعت جارنا الرجل العجوز بأن يعيرني كلبه شيرو. والآن لك أن تتصوري مدى الثروات التي سيجلبها لنا. ناوليني معزقي في الحال."

وفي اللحظة التي أصبح فيها المعزق بيده، ركض مسرعاً إلى الحقل الواقع خلف الدار، حيث تتصب شجرة دردار شبيهة تماماً بشجرة جاره. ثم قال للكلب شيرو، الذي استعاره قبل وقت قليل: "انظر يا شيرو، إذا كانت هناك قطع نقدية ذهبية في باطن الأرض تحت شجرتكم، فلم لا يوجد البعض منها تحت شجرتي؟ والآن إنبش هنا وابحث ... أو هنا ...، أو هنا. وفيما هو يتحدث، دس أنف الكلب

شيرو في الأرض مشدداً على رقبة الكلب المسكين حتى اضطره إلى
النبش عنوة. وهكذا بدأ شيرو ينبش الأرض بمخالبه الأمامية بالرغم
من أنه كان يعاني من ألم شديد. هذا البدء بالنبش أدى إلى انفراج
أسارير الجار العجوز، وهتف: "آه، إنها هنا، أليس كذلك؟... هنا؟...
حسناً. إذن، لم أعد بحاجة إليك. ابتعد، سأحضر الآن بنفسى."

بصق في راحتيه وغرز المعزق في الأرض بقوة وحماسة، ولكنه
سرعان ما صرخ بقلق: "لماذا! كيف؟! لا أثر بعد للقطع النقدية الذهبية؟
حسناً، سأعمل فترة أطول قليلاً."

ولكن على الرغم من كمية التراب الذي جرفه بالمعزق، مرات
ومرات. لم يظهر شيء، ولا حتى صندل من القش، ناهيك عن ظهور
قطع نقدية ذهبية.

تمتم وهو ما زال يحضر: "لا بد أنها مخفية عميقاً."

في تلك اللحظة بالذات تصاعد على حين غرة دفعة من الطين
الأسود الكريه وملاً الحفرة.

وعندما رأى الرجل العجوز تدفق الطين، استبد به الغضب ثم
استدار نحو الكلب شيرو وصرخ: "اللجنة عليك أيها التعيس، إنك أسوأ
الأوغاد. تدل جيرانك على الطين وتعطي أسياذك الذهب. ستدفع ثمن
ذلك غالياً."

وما أن قال ذلك حتى أتبع ذلك بضرب شيرو ضربة قوية بالمعزق، لم يتمكن الكلب المسكين من تفاديها. وكانت ضربة قاتلة. فقد ترنح شيرو وسقط صريعاً. ورمى الرجل العجوز جثته في الحفرة وأهال عليها التراب. ثم عاد إلى البيت، وكأن شيئاً لم يكن.

لم يعد شيرو إلى البيت لعدة أيام. ولذا بدأ القلق يساور الزوجين العجوزين، وارتأى الرجل العجوز أنه لا ضير عليه من الذهاب لإحضار شيرو، فتوجه إلى بيت جاره. وبادره قائلاً: "ماذا يفعل كلبنا شيرو؟ وأضاف بلهفة: "أرجوكم أن تعيداه إلي إذا كنتما قد انتهيتما منه." ولكن الجار ظل جالساً في مكانه، وقال بكل وقاحة: "آه، إنك تريد شيرو، أليس كذلك؟ حسناً، لقد قتلته قبل أيام."

صرخ الرجل العجوز قائلاً: "ماذا؟ هل قتلت شيرو؟ وأضاف وهو مذهول: "لماذا، لماذا قتلته؟"

وحينذاك بدأ الجار يجيب بصلافة: "إني لست من النوع الذي يقتل مخلوقاً بريئاً. اسمع. لقد استعرتة قبل أيام وكلفتة بحراسة حقلي بسبب ما لقيته مؤخراً من متاعب كثيرة مع تلك الثعالب التعيسة، ولكنه عصى حتى أهمل واجبه ولم يفعل سوى الأكل والشرب طوال اليوم، فضلاً عما ألحقه من ضرر بأملاكى، الأمر الذي استثناني بطبيعة الحال، وأعترف بأنني كنت فظاً بعض الشيء معه. ومع أنه كان عزيزاً عليك، فلو كنت مكاني هل كنت تستطيع الوقوف متفرجاً وهو يسبب كل هذه المتاعب للآخرين؟"

حين سمع الرجل العجوز هذه الكلمات بدأ يبكي بحرقة. وأخذ ينتحب قائلاً: "آه، كلبى الصغير المسكين. لو كنت أعرف كل ذلك في حينه لجنّت وقدمت كل الاعتذارات إذا كان ذلك سينقذ حياة شيرو! آه، يا لها من قسوة!" وأطلق العنان لحزنه بعض الوقت، ولكنه سلم أخيراً بخسارته، وقال: "ما فائدة البكاء على الميت؟ إذا كان شيرو قد أخطأ فهو بالطبع يستحق الموت. وليس في اليد حيلة الآن. ولكني أريد على الأقل أن أنقل جثته معي إلي بيتي. ولا ريب في أنك ستعطيني الجثة."

أجاب الجار: "إن هذا غير ممكن لأنه قد مضت الآن أيامٌ عديدة منذ أن دفنته تحت شجرة الدردار في حقلي."

تمتم الرجل العجوز المكوم: "ما من عمل إذن لأني، بالطبع، لا أريد أن أنبش الجثة بعد أن دفنت."

صمت بعض الوقت ثم فجأة خطر له فكرة، فقال: "هل تستكثر علي طلبى منك أن تبيع لي شجرة الدردار؟"

رد عليه الجار سائلاً باستغراب: "شجرتي؟ بكل تأكيد. إذا كنت تريدها، لا أرى سبباً يمنعني من بيعها. ولكن لماذا تريد ذلك؟"

أجاب الرجل العجوز: "من الطبيعي أن أحبها لأن كلبى العزيز شيرو مدفون تحتها. أرجوك أن تبيعها لي، أتوسل إليك."

قال الجار: "إذا كنت، إلى هذا الحد، تريدها. أهلاً وسهلاً."

وهكذا اشترى الرجل العجوز شجرة الدردار، وشكر جاره. أخذ الشجرة إلى البيت وهو يبكي ، ممتياً النفس أنه بهذا إنما كان يحمل معه جثة كلبه شيرو العزيز على قلبه.

والآن ماذا تعتقدون أنه فعل بالشجرة؟ لقد صنع منها هاوناً ومدقة كبيرين وشرع في الحال يدق عجينة الأوا - موتشي، الكعك المصنوع من الدخن.

كان الرجل العجوز يدق والمرأة العجوز تساعده بخلط الموتشي في الهاون. مرددين: "أيها العزيز شيرو، سنصنع لك الأوا - موتشي الذي تحبه. اصبر وانتظر."

هكذا كانا يتحدثان إلى شيرو، وكأنه ما زال معهما.

وعند ذلك حدث أمر شديد الغرابة. فإن أول كيلو غرام من الدخن وضع في الهاون انتفخ في الحال إلى كيلو غرامين ثم إلى ثلاثة كيلو غرامات، ثم أكثر فأكثر. حتى أن سيلاً كاملاً من الأوا - موتشي أخذ يتدفق من دون وضع مزيد من الدخن في الهاون.

اندهش الزوجان العجوزان، وفرحا بهذا المشهد، وتذوقا شيئاً من الكعك. وتصورا أن ما حدث من معجزة إنما هو من صنع شيرو، عرفاناً منه بجميلهما.

لم يسبق أن ذاقا كعكاً له هذا الطعم اللذيذ. وكان مشبعاً جداً. حتى أنهما بعد أكل قطعة واحدة فقط لم تعد هناك ضرورة بعد ذلك للأكل طيلة يوم كامل.

كيف عرف الجار العجوز بما جرى، ليس معروفاً. ولكن لم يمض وقت طويل حتى أتى داساً أنفه في الباب ليقول: "آسف على الإزعاج، ولكن هلا أعرتماني هاونكما والمدقة لبعض الوقت، لأنني أنا أيضاً متلهف بدق الأوا - موتشي؟" ما أظنه خافياً عليكم ما كان يضمه هذا الجار المحتال.

ليس غريباً، بل من المتوقع أن يكون الرجل العجوز غير ودود مع جاره هذا وهو العارف من تجربته المريرة طريقة هذا الجار الفجة والوقحة في استعارة ممتلكات الآخرين. ولكنه لم ينس أن الهاون والمدقة مصنوعان من شجرة الدردار التي اشتراها من هذا الجار، وشعر بأنه من غير اللائق أن يرفض طلبه. وهكذا وافق، على مضض، على إعارته ما يعتبره كنزاً ثميناً.

وهذه المرة، أيضاً، مرت الأيام تباعاً من دون أن يلوح في الأفق إشارة لإعادة الهاون المعار. وشعر الرجل العجوز بالقلق، متوجساً من حدوث خطب ما. فذهب أخيراً إلى بيت جاره، وسأله بكل أدب إذا كان قد إنتهى من الهاون.

كان الجار العجوز يجلس قبالة فرنه منهمكاً في حرق شيء ما.
رفع رأسه لدى سماعه صوت الرجل العجوز وقال بكل هدوء: "آه، هذا
الهاون، أليس كذلك؟ إني كسرته إلى قطع وها أنا أحرقه."

صرخ الرجل العجوز مصعوقاً: "ماذا؟ تحرق هاووني؟!"

أجاب الجار: "أنت تفهم أنني ما كنت أحرقه بدون سبب وجيه
خاصة وأنه هاون مستعار، ولكن فيما كنت أدق قبل أيام انبجس منه
طين أسود ككريه وأفسد كعكتي اللذيذة من الأوا - موتشي، التي
صنعتها بعد عناء. ولهذا السبب كسرته وها أنت تراني أحرقه هنا!"

هتف الرجل العجوز مستغرباً: "طين أسود؟!"

- "نعم، طين أسود. كان ينبثق مع كل دقة من يد الهاون."

قال الشيخ العجوز: "إني شديد الأسف. ولكن لو أخبرتني عن ذلك
لأعطيتك شيئاً من كعكتي، بكل سرور. كيف يمكن أن تفقد
أعصابك بهذه السرعة! ولكن ما فائدة الكلام الآن وقد تلف الهاون.
غير أنني أطلب منك أن تعطيني بعض الرماد."

- "إذا كنت تريد رماداً، فخذ منه ما تشاء."

ملاً الرجل العجوز سلة من ذاك الرماد، وذهب إلى البيت. لكنه
بسبب طيبة قلبه لم يحقد على جاره. أخذ الرماد في الحال، ومن دون
أن يدرك بالضبط ما يفعله، أخذ ينثر الرماد على أرض حديقته.

وفجأة حدث أمر رائع. فقد تفتحت وأزهرت كل أشجار الأجااص
وأشجار الكرز العارية مع أن الموسم لم يكن ربيعاً. لقد كان منظرًا
جميلاً. أصيب الرجل العجوز بالذهول، وشرع يصفق بيديه مسروراً.
واحتفظ لنفسه بما تبقى في السلة من رماد.

وفي أحد الأيام جاء فارس غريب نحو الباب ونادي بصوت عال طالباً
الدخول. خرج الرجل العجوز بنفسه ليرى من يكون الهاتفف.

بادره الغريب بالكلمات التالية: "أنا من أتباع أمير هذه المقاطعة. وقد
ماتت شجرة الكرز المفضلة لدى سموه منذ زمن بعيد. وعجزت كل
الرعاية والتغذية عن إبقائها حية. ونتيجة لذلك أصيب سموه بغم كبير
ولم تعد له رغبة في الحياة، ونحن أتباعه نشعر بقلق عميق عليه. ومن
حسن الصدق أننا سمعنا قبل أيام عن وجود رماد ساحر في حوزتك
يجعل حتى الأشجار الميتة تتفتح وتزهر. إذا كان لديك هذا الرماد
حقاً، فأتوسل إليك أن تأتي معي إلى القلعة وأن ترى ما تستطيع عمله
لهذه الشجرة."

كان الفارس شديد الإلحاح. احتار الرجل العجوز في البداية بسبب
ظهور الفارس المفاجئ وطلبه الغريب ولكنه أجاب: "نعم، كل ما تقوله
صحيح. لدي هذا الرماد السحري. ولم أرفض طلب سموه؟ سأرافقك
بكل سرور وأعتقد أن الأمير سيرى قريباً شجرته المفضلة وقد أزهرت."

شكره الفارس على استجابته السريعة ورجاه أن يسرع معه إلى القلعة فانطلقا في الحال. الفارس يسير في المقدمة والرجل العجوز يتبعه حاملاً سلة الرماد. ويلغا القلعة بعد وقت.

وهناك وجدا الأمير ينتظر بفارغ الصبر، وما أن رأى وجه الرجل العجوز حتى بادر إلى الكلام: "مرحباً، أيها الرجل الجليل. إغفر لي نفاذ صبري ولكن هلا شرعت حالاً في العمل على شجرتي المسكينة وسأرقيك من هنا."

أجاب الرجل العجوز: "سأبدأ الآن، بإذنكم."

وبعد تحضيرات بسيطة أخذ سلة الرماد بهدوء وتسلق شجرة الكرز وجلس في مكان مريح. وأخذ حفنة من الرماد ورماها على قمة الشجرة. وعلى ما في الأمر من غرابة بدأت الفروع التي كانت حتى ذلك الحين ميتة كالحطب تتفتح بصورة مفاجئة وكاد جمال الأوراق والأزهار يعشي أبصارهم!

وتستطيعون أن تتصوروا فرحة الأمير. فلقد قفز مبتهجاً. ولما كان هذا كله يعود إلى طيبة الرجل العجوز، فقد استدعاه وكافأه بالذهب والفضة، بالطبع. لكنه أعطاه بالإضافة إلى ذلك جبلاً من الملابس الجميلة والأثاث الأنيق وكنوزاً أخرى. ولكن أهم من ذلك كله أنه منحه اسماً جديداً يجلب الحظ قائلًا: "تستحق أن نسميك من الآن فصاعداً "الرجل مورق الشجر."

وبعد فترة وجيزة استأذن الرجل العجوز من الأمير، وعاد إلى البيت مسروراً.



وسرعان ما
تتاهى إلى سمع
الجار البغيض أن
الرجل العجوز
حصل من الأمير
على لقب "الرجل
مورق الشجر"،
والكثير غير ذلك
من الهدايا النادرة

مقابل خدماته القيمة في إحياء شجرة الكرز. تملكه الحسد إزاء ما
حالف الرجل العجوز من حسن الحظ. وبعد أن تقصى من حوله،
بفضوله المعهود، اكتشف أن السبب في ذلك لم يكن سوى رماد
الهاون الذي أحرقه!

هتف: "حسناً! ذلك الرماد! من كان يخطر بباله؟ لماذا لا أجرب
في هذا العمل كما فعل جاري؟ وهذه المرة لست بحاجة إلى الاستعارة
منه لأن بعض الرماد مازال موجوداً عندي، بلا شك."

وبسرعة نبش في فرنه وجمع سلة من الرماد، وكأنه كنز ثمين.
كان من الأفضل له، كما سترون، أن يترك الرماد في مكانه.

خرج راكضاً إلى الشارع يهتف وسله الرماد على ذراعه: "آي! إني
الرجل مورق الشجر الشهير، سأجعل من أشجاركم الميتة مورقة."
وكان لكثرة صياحه يسبب الفوضى والهباج أينما ذهب.
وحدث أن سمع الأمير صراخ الجار العجوز فقال لحاشيته: "بيدو أني
أسمع صديقنا الرجل مورق الشجر ماراً في طريقه، قريباً منا. لندعوه
يكسر رتابة يوم ممل، وسيرفه عنا بجعل أشجارنا تتفتح مورقة
مزهرة."

خرج أفراد الحاشية في الحال لدعوة الرجل.
كان الرجل العجوز مسروراً، بالطبع، معتقداً أن كل أمنياته على
وشك أن تتحقق.

وما أن رآه الأمير حتى ارتاب في الأمر. فسأل: "هل كنت أنت الذي
مررت لتوك بيابنا هاتفاً أنا الرجل مورق الشجر؟"
أجاب الرجل العجوز بأدب جم: "نعم يا صاحب السمو."
قال الأمير والحيرة بادية عليه: "إنه لأمر غريب فأنا لا أعرف إلا رجلاً
عجوزاً واحداً مورقاً للشجر، وأحسب أنك من تلاميذه."
سارع المحتال إلى الإجابة: "آه، كلا. أنا الرجل المورق الشجر
الحقيقي، والذي جاء إلى قلعتك هو تلميذي."

قال الأمير: "إن هذا أمر مثير للغاية. إذا كنت أنت الرجل المورق
الشجر الأصلي فلا بد أن تكون مهارتك فائقة. من حسن الحظ أن
شجرة ميتة تتصب هناك. اجعلها تتفتح وتورق زاهرة."
فكر الرجل العجوز أن فرصته قد أتت أخيراً، وهرع إلى الشجرة.
وأخذ بيده حفنة من الرماد، رشها على الشجرة هاتفاً: "ياتو، ياتو".
لكن الشجرة بقيت على حالها، لم تتفتق عن برعم واحد،
ناهيكم عن الإزهار! ثم بدأ الرجل العجوز يصب مزيداً من الرماد،
معتقداً أن ما رشه ربما لم يكن كافياً. ولكن بلا جدوى. وحاول
المرّة تلو الأخرى رامياً الرماد بقوة وشدة، ولكن من دون أن تتفتح ولو
ورقة أو زهرة واحدة وتتأثر الرماد في جميع أنحاء الحديقة، وطار
أخيراً في عيني الأمير وأنفه حتى أنه لم يعد يحتمل فصاح وقد استبد به
الغضب: "أخرج يا مورق الشجر المزيف! كيف تجرؤ على خداعي، أيها
الوغد؟ اقبضوا عليه يا رجال!"



ولم يمض وقت طويل حتى ألقى بالتعيس في السجن.
ولكن صاحب الكلب شيرو كان يزداد ثراء كل يوم بفضل
الذهب الذي جمعه من تحت شجرة الدردار ومن مكافأة الأمير.
وعاش هانئاً سعيداً معروفاً في طول البلاد وعرضها بأنه الرجل مورق
الشجر والشهير، "ميديتاشي"!